المحاضرة الثالثة

إعجاز القرآن

مراحل تحدي العرب

الموضوعات

معنى الإعجاز

مراحل تحدي العرب

القول بالصرفة والرد عليه

~~علاقة الإعجاز بعلم البلاغة~~

قضية الإعجاز القرآني وأثرها في البلاغة

مظاهر الإعجاز البلاغي

الفصل السابع

في إعجاز القرآن

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى لرسول الله محمد بن عبد الله ﷺ. وهذا يقتضينا ان نقدم بين يدي بحثنا في الاعجاز حديثاً عن المعجزة.

المعجزة:[1]

المعجزةُ ظاهرة تكررت في حياة الأنبياء صلوات الله عليهم، لتكون دليلا على صدق دعواهم النبوة. وقد قص القرآن الكريم علينا كثيراً من أنباء المعجزات التي جاءت مصدقة لرسل الله المتقدمين من أمثال ناقة صالح وعصا موسى، وركوبه البحر، وإحياء عيسى الموتى، وإبرائه الأكمه والأبرص.

ولا بد في المعجزة من أن تتوافر فيها أمور ثلاثة:

١ ـ انها أمر خارق للعادة غير جار على ما اعتاد الناس من سنن الكون والظواهر الطبيعية. ولذا فهي غير قابلة لتفسيرها على نحو ما يجري عادة في الحياة.

٢ ـ انها أمر مقرون بالتحدي، تحدي المكذبين أو الشاكين، ولا بد

---

(١) انظر «تعريف عام بدين الاسلام» ١٩٥ ـ ٢١١ و«نظام الاسلام: العقيدة والعبادة» ١٠٥ ـ ١٠٨.

أن يكون الذين يتحدون من القادرين على إتيان مثل المعجزة إن لم تكن من عند الله، وإلا فإن التحدي لا يتصور، إذ أننا لا نستطيع ان نتصور بطلا في الملاكمة يتحدى طفلا، لأن هذا الطفل عاجز عن مقابلته[1].

٣ - انها أمر سالم عن المعارضة، فستى أمكن لأحد أن يعارض هذا الأمر ويأتي بمثله بطل أن يكون معجزة.

والمعجزة على نوعين: حسية وعقلية.

والملاحظ أن أكثر معجزات الأنبياء السابقين كانت حسية، بينما نجد ان المعجزة الكبرى التي جاء بها نبينا محمد ﷺ عقلية، ونعني بهذه المعجزة القرآن، وهناك معجزات أخرى للنبي ﷺ جاء في الصحيح أخبارها وهي كثيرة[2].

لماذا عقلية ؟

(١)

ولعل مرد ذلك الى أن هذه الشريعة آخر الشرائع وستبقى الى أبد الدهر الى يوم القيامة، ومن أجل ذلك فقد خصت بالمعجزة العقلية الباقية، ليراها ذوو البصائر في كل العصور ومهما تقدم الزمان.

(٢)

... وهكذا فإن معجزات الانبياء السابقين - عليهم السلام - قد انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا من حضرها، بينما معجزة القرآن مستمرة الى يوم القيامة.

وبنحو من هذا الذي ذكرنا فسَّر العلماء قوله ﷺ فيما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة:

---

(١) وفي ذلك رد لزعم أبي إسحاق النظام من أن العرب سلبوا القدرة على الاتيان بالقرآن مع امكانهم ذلك.

(٢) وقد استوفى الكلام عليها القاضي عياض في كتابه القيم «الشفا في حقوق المصطفى» وابن كثير في «البداية والنهاية» ٦/٦٥ - ٣٠١ ووليد الأعظمي في «المعجزات المحمدية».

«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله اليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تبعاً يوم القيامة»[1].

* * *

الاعجاز:

كان القرآن معجزاً للعرب ذوي الفصاحة وأولي البلاغة، تحداهم فلم يقدر أحد منهم على معارضته، وقد قرَّر القرآن ان مجرد سماع العرب لآياته حجة كبرى عليهم، وكفى هذا دليلا على إعجازه. قال تعالى في صدد الرد على طلبهم المعجزات مشيراً إلى أن هذا الكتاب يغني عن كل معجزة: ﴿وقالُوا: لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ من ربِّهِ. قُلْ إنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ، وإنَّما أنَا نذيرٌ مبينٌ. أَوَلَمْ يكْفِهِم أنَّا أنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكتابَ يُتْلَى عليهم﴾[2].

فأخبر سبحانه: ان الكتاب الكريم الذي أنزله الله والذي يتلى عليهم آية من آيات الله كاف في الدلالة على صدق نبوته، قائم مقام معجزات كثيرة. فلماذا يطلب هؤلاء القوم الآيات؟ أولا يكفيهم هذا الكتاب الذي يفوق كل معجزات الأنبياء السابقة في الدلالة على نبوته؟

ويقول تعالى: ﴿وإنْ أحدٌ مِنَ المشركينَ استجارَكَ فَأجِرْهُ حتَّى يَسْمَعَ كَلامَ الله﴾[3].

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن في باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل ١٥٠/٦ وفي كتاب الاعتصام في باب قول النبي ﷺ «بعثت بجوامع الكلم» ٧٥/٩ ورواه مسلم في كتاب الايمان في باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد ﷺ ٩٢/١ وانظر «اللؤلؤ والمرجان» ٣٠/١ وانظر شرح الحديث في «فتح الباري» ٦/٩ وفي «شرح مسلم» للنووي ١٨٦/٢ و«البداية والنهاية» ٦٩/٦ و«الاتقان» ١١٦/٢ حيث نقل عن شراح الحديث كلاماً وافياً. وانظر «مبارق الازهار في شرح مشارق الأنوار» لابن الملك ٣٠٣/١.

(٢) سورة العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١.

(٣) سورة التوبة: ٦.

وإذا سمع كلام الله وتذوقه قاده ذلك إلى الإيمان ان كان من المنصفين، لأنه لا يسمعه متذوق منصف إلا وينتهي به إلى الإيمان.

هذا وقد أيد الواقع التاريخي ذلك، فقد حدثتنا كتب السيرة انَّ مجرد سماع العربي للقرآن كان يوقفه على المعجزة العظمى، ويحمله ذلك على الايمان. وأدرك ذلك كفار قريش، فكانوا ينهون عن سماع القرآن، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم: ﴿وقالَ الذينَ كَفرُوا: لا تَسْمَعُوا لِهَذا القرآن والغَوْا فيهِ لعلَّكم تَغْلِبُون﴾[1].

وكانوا يسعون جهدهم للحيلولة بين رسول الله ﷺ وبين من يأتي من وفود العرب الى مكة. ومن ذلك ما جاء في «سيرة ابن هشام» عن اسلام الطفيل بن عمرو الدوسي:

(قدم الطفيل مكة، ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش، وكان الطفيل شريفاً شاعراً لبيباً. فقالوا له: يا طفيل إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين اظهرنا قد أعضل بنا[2]، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا. فلا تكلمنَّه ولا تسمعن منه شيئاً. قال الطفيل: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ان لا اسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا[3] فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه.

فغدوت إلى المسجد، فاذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً

---

(١) سورة فصلت: ٢٦.

(٢) أي اشتد أمره بنا.

(٣) الكرسف: القطن.

حسناً، فقلت في نفسي: وا ثكل أمي، والله اني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليَّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وان كان قبيحاً تركته.

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ الى بيته، فاتبعته، حتى اذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا.. فوالله ما برحوا يخوفونني امرك حتى سددت اذني بكرسف لئلا اسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعت قولا حسناً، فاعرض عليَّ أمرك. فعرض عليَّ رسول الله ﷺ، وتلا عليَّ القرآن. فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق)[1].

ومن أشهر الذين دخلوا في الاسلام بسبب إعجابهم باعجاز القرآن: عمر بن الخطاب وأسيد بن حضير وسعد بن معاذ وغيرهم.

قال الاستاذ سيد قطب:

(سحر العرب منذ اللحظة الأولى، سواء منهم في ذلك من شرح الله صدره للاسلام، ومن جعل على بصره غشاوة.

وإذا تجاوزنا عن النفر القليل الذين كانت شخصية محمد ﷺ وحدها هي داعيتهم إلى الايمان في أول الأمر. كزوجه خديجة. وصديقه أبي بكر. وابن عمه علي، ومولاه زيد، وأمثالهم، فإننا نجد القرآن كان العامل الحاسم، أو أحد العوامل الحاسمة في ايمان من آمنوا أوائل أيام الدعوة، يوم لم يكن لمحمد ﷺ حول ولا طول، ويوم لم يكن للاسلام قوة ولا منعة.

---

(١) «سيرة ابن هشام» ١٣٠/٢ المطبوعة مع الروض الأنف و«البداية والنهاية» ٩٨/٣ - ١٠١ و«تقريب السيرة النبوية لابن هشام» تصنيف محمد الشبراوي ص ١٤٥ وما بعدها، وانظر تتمة القصة هناك وكيف كان هذا الرجل داعية إلى الاسلام بعد ذلك.

وقصة ايمان عمر بن الخطاب وتولي الوليد بن المغيرة نموذجان من قصص كثيرة للايمان والتولي، وكلتاهما تكشف عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ اللحظة الأولى، وتبينان في اتجاهين مختلفين عن مدى هذا السحر القاهر الذي يستوي في الاقرار به المؤمنون والكافرون)[1].

وقصة ايمان عمر معروفة[2]، وأما قصة تولي ابن المغيرة فيحسن أن نذكر بها:

وموضوع الشاهد منها أن قريشاً أوفدت أبا جهل اليه يطلب منه أن يقول في القرآن قولا يعلم منه الناس جميعاً أنه كاره له، فأجابه الجواب الآتي الذي يدل على تأثره بجمال القرآن: (ماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وانه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى عليه).

قال ابو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني افكر فيه.

فلما فكر قال: (إنْ هذا إلا سحر يؤثر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله ومواليه).

وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿إنهُ فكَّرَ وقدَّر، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وبَسَرَ، ثُمَّ أدْبَرَ واستكبَر، فقالَ: إنْ هَذا إلاّ سحرٌ يُؤثَر﴾[3].

---

(١) «التصوير الفني في القرآن» ص ١١.

(٢) أنظرها في «سيرة ابن هشام» ٢/٩٥ و«البداية والنهاية» ٣/٧٩ و«تقريب السيرة» ص ١٢٤ - ١٣٠.

(٣) سورة المدثر: ١٨ - ٢٤ وقد أخرج هذه القصة الحاكم عن ابن عباس وانظر «الاتقان» ٢/١١٧ و«تفسير القرطبي» ١٩/٧٤ و«سيرة ابن هشام» ٢/١١ و«البداية والنهاية» ٣/٦١ و«تقريب السيرة» ص ٩٤.

والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة؟ فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل اليه وهم يبذلون أكثر منه)[1].

* * *

مدار الاعجاز:

الاعجاز دليل النبي ﷺ على صدق نبوته، وعلى أن هذا القرآن تنزيل من حكيم حميد، **ومدار الاعجاز الذي رافقه التحدي إنما كان اسلوب القرآن ونظمه وبيانه، ولم يكن لشيء خارج عن ذلك وايات التحدي كثيرة.**

التحدي كان على ثلاثة مراحل:

(١) لقد تحدى الانس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك مع توافر دواعي اعدائه على معارضته وفصاحتهم وبلاغتهم.

﴿قُلْ لَئِنِ اجتمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ عَلَى اَنْ يَأْتُوا بمثلِ هَذا القرآن لا يَأْتُون بمثله، ولَوْ كَانَ بعضُهم لبعضٍ ظهيراً﴾[2]. ﴿أم يقولونَ تقوَّلَهُ بلْ لا يُؤمنونَ. فَليأتُوا بحديثٍ مثلِه إنْ كانُوا صادقين﴾[3].

(٢) ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا:

﴿أم يقولونَ افتراهُ. قُلْ فأْتُوا بعشرِ سورٍ مثلِهِ مُفْتَرَياتٍ وادْعُوا مَن استطعتُم مِنْ دُون الله إنْ كُنْتُم صادقينَ. فإن لَمْ يَستجيبُوا لكم فاعلمُوا أنَّما أُنزِلَ بعلمِ الله وأنْ لا إلهَ إلاَّ هُوَ فَهَلْ أنْتُمْ مُسْلَمُون﴾[4].

(٣) ثم تنازل الى التحدي بسورة من مثله فعجزوا عنه وهم يعلمون عجزهم

---

(١) الاتقان، ٢/١١٧.
(٢) سورة الاسراء: ٨٨.
(٣) سورة الطور: ٣٤.
(٤) سورة هود: ١٣ - ١٤.

وتقصيرهم عن ذلك، وأن هذا ما لا سبيل لأحد إليه أبداً: ﴿وانْ كُنْتُمْ في ريبٍ ممَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنا فأتُوا بسُورةٍ مِنْ مِثْلِهِ، وادْعُوا شُهَدَاءكُمْ مِنْ دُونِ الله إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فإنْ لَمْ تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارَ التي وَقُودُها الناسُ والحجارةُ أُعِدَّت للكافرين﴾ (١).

قال الامام ابن كثير رحمه الله:

(ومثل هذا التحدي انما يصدر عن واثق بأن ما جاء به لا يمكن للبشر معارضته ولا الاتيان بمثله، ولو كان من متقول من عند نفسه لخاف أن يعارض فيفتضح، ويعود عليه نقيض ما قصده من متابعة الناس له. ومعلوم لكل ذي لب أن محمداً ﷺ من أعقل خلق الله، بل أعقلهم وأكملهم على الاطلاق، فما كان ليقدم على هذا الامر إلّا وهو عالم بأنه لا يمكن معارضته.

وهكذا وقع، فانه من لدن رسول الله ﷺ والى زماننا هذا لم يستطع أحد أن يأتي بنظيره ولا نظير سورة منه، وهذا لا سبيل إليه أبداً)(٢).

* أما إخبار القرآن عن الأمم السابقة فدليل على صدق نبوة الرسول ﷺ، ولكنه ليس هو موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي، وذلك كاخباره عن نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم: ﴿كذلكَ نَقُصُّ عليكَ من انباءِ ما قَدْ سَبَقَ، وقد آتيناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾ (٣).

﴿ذلكَ مِنْ أنباءِ القُرى نقصُّه عَلَيْكَ، مِنْها قائمٌ وحَصِيدٌ﴾ (٤).

﴿تِلكَ مِنْ أنباءِ الغيبِ نُوحيها إليكَ، ما كُنْتَ تَعْلَمُها أنْتَ ولا قومُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فاصبرْ إن العاقِبَةَ للمتقين﴾ (٥) وقال تعالى مخبراً عن

---

(١) سورة البقرة: ٢٣ وما بعدها.
(٢) «البداية والنهاية»: ٦/٦٥.
(٣) سورة طه: ٩٩.
(٤) سورة هود: ١٠٠.
(٥) سورة هود: ٤٩.

بهتان اليهود: ﴿وبكفرهم وقولِهم على مَرْيَمَ بهتاناً عظيماً وقولِهم إنَّا قتلنا المسيحَ عيسى بنَ مريمَ رسول اللهِ، وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شُبِّهَ لهم وإنَّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ علم إلا اتِّبَاعَ الظنِّ، وما قَتَلُوهُ يقيناً بَلْ رَفَعَهُ الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ (١).

* وكذلك فان إخبار القرآن عن الغيوب المستقبلة يقوم دليلا على صدق نبوة محمد ﷺ (٢)، وعلى أن هذا القرآن من عند الله، ولكنه ليس موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي، وذلك كاخباره عن انتصار الروم على الفرس ﴿الم. غُلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرض وهُم من بعد غَلَبِهم سَيَغْلِبُونَ في بضعِ سنين﴾ (٣). وكَاخباره عما سيكون عَليه الصحابَة ﴿عِلِمَ أنْ سيكونُ منكم مَرْضى وآخرونَ يضربونَ في الأرضِ يَبْتَغُون من فضلِ اللهِ وآخرون يُقاتِلون في سبيلِ الله﴾ (٤) وهذه السورة من أوائل ما نزل بمكة. وكاخباره عن انتصار المسلمين في المستقبل ﴿أم يقولونَ نحنُ جميعٌ منتصرٌ سَيُهْزَمُ الجمعُ ويُوَلُّونَ الدُّبُر﴾ (٥) وقد وقع مصداق هذه الهزيمة يوم بدر بعد ذلك. وكإخباره بدخولهم المسجد الحرام محلقين رؤوسهم ﴿لقد صَدَقَ اللهُ رسولَهُ الرؤيا بالحقِّ لتدخلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمنينَ محلقين رؤوسَكُمْ ومُقَصِّرين لا تخافون﴾ (٦) فدخلوه بعد سنة معتمرين، ودخلوه بعد سنتين فاتحين. وكاخباره بالاشارة الموحية عن حدوث وسائط

---

(١) سورة النساء: ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) ذكر البغدادي في «الفرق بين الفرق» ص١٢٨ أنَّ من فضائح أبي الهذيل قوله: إن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي ﷺ ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه ما فيه من الاخبار عن الغيوب.

(٣) سورة الروم: ١ - ٢ وانظر تفصيل هذا الإخبار في كتاب «الاسلام يتحدى» لوحيد الدين خان من ص ١٩٤ حتى ص ٢٠٤.

(٤) سورة المزمل: ٢٠.

(٥) سورة القمر: ٤٤ - ٤٥.

(٦) سورة الفتح: ٢٧.

للنقل جديدة غير الوسائل المعروفة وذلك في قوله سبحانه ﴿والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها وزينةً ويخلقُ مالا تعلمونَ﴾ (١).

* وكذلك فان ما تضمنه القرآن من الاخبار عن السرائر ودخائل النفوس من غير ان يظهر منهم بقول أو فعل دليل على صدق نبوته، وعلى ان هذا القرآن من عند الله ولكنه ليس موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي، وذلك كاخباره عن حديث نفس خطر ببالهم، فأطلع الله عليه نبيه ﷺ وأنزل قوله: ﴿إذ همّتْ طائفتانِ منكمْ انْ تَفْشَلا (٢) والله وليُّهما وعلى الله فليتوكلِ المؤمنونَ﴾ (٣) والطائفتان هما بنو حارثة وبنو سلمة اللتان همتا بالتقاعد عن الخروج يوم أحد. وكاخباره عن قول قاله اليهود في أنفسهم: ﴿ويقولونَ في انفسِهم لَوْلاَ يُعذِّبُنَا الله بما نقولُ. حسبُهم جهنمُ يَصْلَوْنَها فبئسَ المصيرُ﴾ (٤).

* وكذلك فان احتواء القرآن على شريعة كاملة صالحة لكل زمان ومكان امر يدل على صدق نبوة محمد ﷺ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله، ولكنه ليس هو موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي..

* وكذلك فان اشتمال القرآن على نظرات صائبة الى حقائق الكون، وإشارات صادقة الى بعض الامور العلمية في الكون والانسان التي كشف عنها العلم الحديث (٥).. ان ذلك يدل على صدق نبوة محمد ﷺ، وعلى ان

---

(١) سورة النحل: ٨ وأنظر أخباراً أخرى أوردها محمد بن إبراهيم الوزير المتوفى ٨٤٠ في كتابه «البرهان القاطع في إثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع» ص ٣٢ - ٣٣ ط المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٩.

(٢) أي أن تجبنا وتضعفا.

(٣) سورة آل عمران: ١٢٢.

(٤) سورة المجادلة: ٨.

(٥) أنظر امثلة عليها في كتب التفسير العلمي. ومنها ما نقره ومنها ما نرده ونأباه.

هذا القرآن من عند الله، ولكنه ليس هو موضع الاعجاز الذي رافقه التحدي.

* إذن فالاعجاز الذي رافقه التحدي إنما هو في اسلوب القرآن ونظمه، وليس في شيء خارج عن ذلك مما أشرنا اليه آنفاً وإن كانت كلها ممَّا يعجز البشر عن ان يأتوا بمثلها وهي دليل على صدق النبي ﷺ ولكن بحثنا عن الإعجاز الذي رافقه التحدي، وقد جلا هذه الفكرة الكاتب الكبير الاستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى فقال:

(كيف استحوذ القرآن على العرب هذا الاستحواذ؟ وكيف اجتمع على الاقرار بسحره المؤمنون والكافرون سواء؟

بعض الباحثين ينظر الى القرآن جملة ثم يجيب. وبعضهم يذكر غير النسق الفني للقرآن أسباباً اخرى يستمدها من موضوعاته بعد أن صار كاملا:

* من تشريع دقيق صالح لكل زمان ومكان.
* ومن إخبار عن الغيب يتحقق بعد أعوام.
* ومن علوم كونية في خلق الكون والانسان.

ولكن البحث على هذا النحو انما يثبت المزية للقرآن مكتملا، فما القول في السور القلائل التي لا تشريع فيها ولا غيب ولا علوم، ولا تجمع بطبيعة الحال كل المزايا المتفرقة في القرآن.

ان هذه السور القلائل قد سحر العرب بها منذ اللحظة الاولى، وفي وقت لم يكن التشريع المحكم، ولا الاغراض الكبرى هي التي تسترعي إحساسهم وتستحق منهم الاعجاب.

لا بدّ إذن ان تلك السور القلائل كانت تحتوي على العنصر الذي

والاستهزاء، والى أن يقولوا: ﴿إنْ هذا إلاّ أساطيرُ الأولين﴾[1] أو أن يقولوا: ﴿إنْ هذا إلا سحر يؤثر﴾[2].

ثم بعد ذلك ارتضوا أن يحكموا السيف في أعناقهم، وسبي ذراريهم وحرمهم، واستباحة أموالهم.. فلو علموا أن الاتيان بمثله في قدرتهم لبادروا إليه لأنه كان أهون عليهم.

القول بالصرفة:

زعم النظّام[3]، وهو من ائمة المعتزلة في العصر العباسي، أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته، وكان مقدوراً لهم.

وقد أنكر هذا القول الباطل[4] جمهرة علماء اللغة والدين، وتولوا الرد عليه منذ أيام الجاحظ ثم القاضي عبد الجبار المعتزلي[5] حتى العصر الحاضر، ونورد فيما يأتي طائفة من أقوال العلماء في استنكار هذا الرأي.

* قال الباقلاني رحمه الله:

(على أن ذلك لو لم يكن معجزاً على ما وصفناه من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حطّ من رتبة البلاغة فيه، ووضع من مقدار الفصاحة في نظمه، كان أبلغ في الأعجوبة إذا صرفوا عن الاتيان بمثله، ومنعوا عن معارضته، وعدلت دواعيهم عنه، فكان يستغني عن انزاله على النظم البديع، واخراجه

---

(١) سورة الانفال: ٣١.
(٢) سورة المدثر: ٢٥.
(٣) هو إبراهيم بن سيار، أبو اسحاق النظام، توفي سنة ٢٣١ هـ.
(٤) بل نقل الإمام عبد الواحد التميمي في كتابه «اعتقاد الإمام المنبل أبي عبدالله أحمد ابن حنبل» أنَّ الإمام أحمد [كان يكفر من يقول: إن القرآن مقدور على مثله، ولكنَّ الله تعالى منع من قدرتهم. بل هو معجز في نفسه، والعجز قد شمل الخلق] انظر «طبقات الحنابلة» ٢/٣٠٢.
(٥) قال محمود محمد شاكر في مقدمته لكتاب «دلائل الاعجاز» ص ٥:
[لأن القاضي عبد الجبار نفسه، وهو إمام المعتزلة في زمانه، ردَّ مقالة «الصرفة» ونقضها في كتاب «المغني» ١٦/٣٢٣-٣٢٨].

وأعظم الخلق وأكملهم أن يتكلموا بمثل كلام الله. وهذا القرآن الذي يبلغه الرسول ﷺ عن الله أسلوب كلامه لا يشبه أساليب كلام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم...)[1].

* وقال الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله:

(هذا هو القول بالصرفة الذي اشتهر عن النظام من المعتزلة، وهو وان كان اعترافاً في الجملة بصحة الإعجاز إلا أنه لا يقول به إلا أعجمي وشبهه ممن لم يذق للبلاغة طعماً، ولذلك لم يتابعه عليه تلميذه الجاحظ، ولا أحد من علماء العربية، وهو يعد خلاف ما عرف العرب من أنفسهم كما سنبينه)[2].

* وقال الاستاذ سيد قطب رحمه الله:

(أما الرأي القائل بصرفهم عن المحاولة فليس له وزن يقام)[3].

* وقد لخص السيوطي الأفكار التي يتضمنها الرد بأربعة:

١ - قوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن...﴾[4] يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم، لأنهم عندئذ يكونون كالموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره.

٢ - أجمع العلماء على ان الإعجاز مضاف إلى القرآن. فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجاز؟ بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم القدرة.

٣ - يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي.

---

(١) «البداية والنهاية» ٦/٦٩.

(٢) «النبأ العظيم» ص ٨٩ واقرأ الرد على هذا القول ص ٦٢ من المصدر نفسه.

(٣) «التصوير الفني في القرآن» ص ١٥.

(٤) سورة الاسراء: ٨٨.

ويخلو القرآن عندئذ من الإعجاز. وفي ذلك خرق لإجماع الأمة ان معجزة الرسول العظمى باقية، ولا معجزة له باقية سوى القرآن.

٤ ـ لو كانت المعارضة ممكنة وانما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون بالمنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه [١].

* * *

تلخيص:

ونستطيع أن نلخص ـ فيما يأتي ـ الأمور التي لا بد من معرفتها في موضوع الإعجاز:

١ ـ قليل القرآن وكثيره في شأن الإعجاز سواء.

٢ ـ الإعجاز في أسلوب القرآن ونظمه وبيانه. وخصائصه الفنية مباينة للمعهود من خصائص البيان البشري.

٣ ـ ما في القرآن من إخبار بالغيب وحديث عن الماضي بدقائقه وتفصيلاته، وإخبار بدخائل النفس وأسرارها، وكشف عن حقائق علمية وكونية، وإحكام في التشريع يضمن مصالح الناس... كل ذلك بمعزل عن هذا التحدي المفضي إلى الإعجاز وإن كان دليلاً على انه من عند الله، ولكنه لا يدل على ان نظمه وبيانه مباين لنظم كلام البشر وانه بهذه المباينة كلام رب العالمين [٢].

٤ ـ العرب الذين تحداهم القرآن هم أئمة البيان والفصاحة، ولديهم

---

(١) «الاتقان» ٢/١١٨ وانظر في الرد على القائلين بالصرفة «نكت الانتصار» للصيرفي ص ٢٨٦ وكتاب «لوامع الانوار البهية» للسفاريني ١/١٧٤.

(٢) انظر مقدمة محمود محمّد شاكر لكتاب «الظاهرة القرآنية».

لم يؤثر عنهم شيء فقول يحتاج إلى تحقيق وله مكان هو به أشبه لا يتسع له مثل هذا البحث.

وإذا كان لقضية الإعجاز القرآني أثر في البلاغة العربية العلمية في عصر الإسلام فيكون في:

أولاً ـ ظهرت أحكام نقدية عامة على ألسنة المؤمنين والكافرين ـ مثل قول عمر رضي الله عنه: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه» ومثل قول الوليد ابن المغيرة: «والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى». هذه الأحكام هي التي استحالت على أيدي البلاغيين أمثال الباقلاني والعسكري وعبد القاهر الجرجاني والسكاكي إلى قواعد بلاغية قصد منها: أولاً: معرفة وجه إعجاز القرآن البلاغي وثانياً: تكوين الذوق الأدبي الذي يستطيع أن ينشىء الكلام البليغ ويفاضل بينه.

والسكاكي يعلن عن ذلك صراحة، فبعد أن انتهى من وضع قواعده البلاغية لعلمي المعاني والبيان قال: «وإذ أفضى بنا القلم إلى هذا الحد من علمي المعاني والبيان، وما أظنك يشتبه عليك، وأنك منذ وقفنا لتحريك القلم فيهما لتشاهد ما تشاهد، أنا ما سطرنا ما سطرنا، إلا وجل الغرض توخى إيقاظك مما أنت فيه من رقدة غباك عن ضروب افتنانات في النسخ لحبير الكلام على منوال الفصاحة، وإبداع وشيه بتصاوير عن كمال التأنق في ذلك اشداداً وإلجاماً، عسى أن استيقظت أن يضرب لك بسهم حيث ينص الإعجاز للبصيرة تليله، ويقص على المذاق دقيقه وجليله، فتنخرط في سلك المنقول عنهم في حق كلام رب العزة: «إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه يعلو وما يعلى، وما هو

بكلام البشر». فتستغني بذلك عن قرع باب الإستدلال، وأن لا تتجاذبك أيدي الإحتمالات في وجه الإعجاز»[1].

ثانياً ـ فهم القرآن الكريم متوقف إلى حد كبير على معرفة الظروف التي نزل فيها الوحي، والأحداث التي سببت نزوله. قال صاحب البرهان: «معرفة أسباب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز»[2]، وقال ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن، وقال ابن تيمية: «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية: فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب»[3].

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون أسباب النزول لأنهم شاهدوا القرائن، وعالجوا القضايا، بل كانوا يحرصون على معرفتها إذا فاتهم شيء من ذلك، لعل هذا الحرص على معرفة أسباب النزول هو الذي ألهم البلاغيين وكلفهم معرفة حال المتكلم والمخاطب والخطاب نفسه ودرس بيئة المنشيء والظروف التي أثرت عليه ـ عند تحليل نص بليغ من كلام العرب ـ. الأمر الذي جعلهم يعرفون البلاغة بقولهم: «البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال».

ثالثاً ـ أصبح البيان بفضل قضية الإعجاز طريقاً للإيمان، فالمسلم كان ولا يزال يقوم إيمانه على أساس نقدي بياني، لأن معجزة نبي الإسلام بيانية عقلية.

لذا أصبح تعلمه من أمور الدين التي يثاب عليها المسلم في الدارين،

---

(١) مفتاح العلوم ٢١٦ المطبعة الميمنية.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢٢/١.

(٣) الأتقان للسيوطي ص ٢٨ جـ ١.

رفع المسيهما

فاشتدت العناية به أكثر من ذي قبل، ولذلك نرى النبي ﷺ يحدد وضعه بين فنون الجمال حينما يسأل: فيم الجمال؟ فيقول: «في اللسان يريد البيان»[1]. وأبو بكر رضي الله عنه يقاوم الخطأ فيه ويستنكره حينما يمر برجل فيقول له: أتبيع الثوب؟ فيجيبه الرجل: لا عفاك الله، فيقول أبو بكر، لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل لا، وعفاك الله»[2].

يشير إلى وجوب الوصل بين الجملتين إذا اختلفتا خبراً وإنشاء في المعنى، وكان فصلهما يوهم خلاف المقصود.

وانتهى عصر صدر الإسلام، ولم تلق قضية الإعجاز معارضة تذكر، لأن القوم عرب معتزون بعروبتهم، ومسلمون معتزون بإسلامهم، لأنهم خرجوا به منتصرين ضد أعداء كثيرين.

وكانت دلائل الإعجاز البياني تدرك بالذوق الأصيل، والطبع العربي السليم. أما بعد هذا العصر فقد تغيرت الحال، وفسدت الملكات، ودخل في دين الله من يضمر الكفر ويظهر الإسلام، واحتاج المسلمون إلى تدوين المقاييس التي يتفاضل بها الكلام ويخوضون فيها، وهذا ما يلقاك في الباب الأول وما يليه من هذا البحث بمشيئة الله.

---

(١) العمدة لابن رشيق ١/١٦١ وانظر أيضا سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي تحقيق الصعيدي طبع صبيح ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م ص ٦٣.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١/٢٦١ تحقيق هارون.

مظاهر الإعجاز البلاغي

يتجلى هذا الجانب من الإعجاز بمظاهر عدة نوجزها فيما يلي :

أولاً – الخصائص المتعلقة بأسلوب القرآن

إن المظهر الأول من مظاهر الإعجاز البلاغي هو أن القرآن يجري على نسق خاص في أسلوبه ، لا يستطيع أحد أن يجاريه فيه . وهذه الخصائص هي :

أ – **نظمه البديع :** فالقرآن يجري على نسق بديع ، خارج عن المعروف والمألوف من نظام كلام العرب ، فهو لا تنطبق عليه قوافي الشعر ، كما أنه ليس على سنن أسجاع النثر .

ب – **المحافظة على جمال اللفظ وروعة التعبير** : إن التعبير القرآني يختار أجمل الألفاظ لأبهى تعبير ، ويظل جارياً على مستوى رفيع من هذا الجمال اللفظي ، ورقة الصياغة ، وروعة التعبير ، مهما تنوعت أبحاثه ، واختلفت موضوعاته ، وهذا مما يخرج عن طوق البشر .

جـ – **صياغته الموافقة لحال المخاطبين** : إن ألفاظ القرآن وعباراته مصوغة بشكل غريب ، وعلى هيئة عجيبة ، بحيث تصلح أن تكون خطاباً لمختلف المستويات من الناس ، وبحيث يأخذ كل قارئ منها ما يقدر على فهمه واستيعابه ، ويراها مقدرة على مقياس عقله ووفق حاجته .

د – **التجديد في الأسلوب** : الخاصة الرابعة ، هي تصريف بعض المعاني وتكرارها بقوالب مختلفة من التعبير والأسلوب البياني ، بشكل يضفي عليها الجدة ، ويلبسها ثوباً من التجسيم والتخييل غير الذي كانت تلبسه ، بحيث تظهر وكأنها معنى جديد .

ثانياً ـ الكلمة القرآنية

تمتاز الكلمة التي تتألف منها الجمل القرآنية بالميزات التالية :

أ ـ **جمال توقيعها في السمع** : فليس في القرآن لفظ ينبو عن السمع ، أو يتنافر مع ما قبله أو ما بعده ، فالكلمة القرآنية في الذروة من الفصاحة ، وهي تحمل المعنى في طياتها ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات : ٢٧ ـ ٢٩] وانظر إلى كلمة (أغطش) كيف أنها تقدم لك المعنى في تلافيف حروفها قبل أن تقدمه في معناها اللغوي المحفوظ ، وفي الوقت نفسه هي منسجمة مع ما قبلها وما بعدها من الألفاظ ، لا ثقل فيها ولا إغراب ، وكذلك بقية ألفاظ الآية ، فكلها توقع على السمع موسيقا رائعة في منتهى الجمال .

ب ـ **اتساقها مع المعنى** ، وكأن القارئ يشم منها رائحة المعنى المطلوب ، أو يلحظ فيها إشراقاً يصور المعنى أمام العين . اقرأ قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير : ١٧ ـ ١٨] ثم انظر كيف أنك تشم رائحة النهار من كلمة (تنفس) .

جـ ـ **اتساع دلالتها** ، لما لا تتسع له دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات عادة ، بحيث يعبر بكلمة واحدة عن معنى لا يستطاع التعبير عنه إلا ببضع كلمات أو جمل . وخذ مثالاً على ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٧١ ـ ٧٣] . أراد الله تعالى أن يحدثنا في هذه الآية عن مظاهر نعمته علينا ، ومن جملتها النار ، فنبهنا إلى مختلف فوائدها لحياتنا على اختلاف أطوارها ، فعبر عن ذلك بكلمة (المقوين) التي تحمل كل المعاني التي يمكن أن يعبر بها عن فوائد النار ، فهي : جمع مقو ، وهو المسافر ، والجائع ، والمستمتع ، والنار إنما يستفيد

منها المسافر ، كما يحتاجها الجائع لتحضير طعامه ، وهي إلى جانب ذلك كله من أسباب المتعة والرفاهية .

وهذه الميزات الثلاث قلما يتخلف اجتماعها في كلمات القرآن ، بينما لا تجتمع في غيره إلا نادراً ، وما ذاك إلا لأن القرآن من كلام رب العالمين .

ثالثاً ـ الجملة القرآنية وصياغتها

ويتجلى مظهر الإعجاز فيها بما يلي :

أ ـ **التلاؤم والاتساق بين كلماتها** ، وتلاحق حركاتها وسكناتها ، بنظم بديع يستريح له السمع والصوت والنطق . واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : ١١ ـ ١٢] وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة ، وتأمل أيضاً تآلف الحروف وتعاطف الحركات والسكنات والمدود ، وانظر كيف أن كلاً منها كأنما صب في مقدار ، وأنه قدر بعلم اللطيف الخبير .

ب ـ **الدلالة بأقصر عبارة على أوسع معنى** تام متكامل ، دون اختصار مخلّ أو ضعف في الدلالة . واقرأ في هذا قوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا ﴾ [الكهف: ٧٧] فكان الإتيان بالضمير هنا يؤدي المعنى ، كأن يقال : استطعماهم ، ولكن الإتيان بالاسم الظاهر ـ وهو أهلها ـ يفيد معنى أعم وأوسع ؛ لأنه جمع مضاف يفيد العموم ، فيدل على أنهما استطعما جميع أهل القرية ، بخلاف (استطعماهم) فإنه يحتمل أن الاستطعام كان لمن أتياهم ، وهم سكان أول القرية .

جـ ـ **إخراج المعنى المجرد في مظهر الأمر المحس الملموس** ، ثم بث الروح والحركة في هذا المظهر نفسه ، بحيث يجد القارئ إقناع العقل وإمتاع العاطفة ، بما يفي بحاجة النفس البشرية تفكيراً ووجداناً في تكافؤ واتزان ، فلا تطغى

قوة التفكير على قوة الوجدان ، ولا قوة الوجدان على قوة التفكير ، وهكذا تجد وأنت تقرأ القرآن أن العقل يفهم والخيال يتصور ، وذلك خلاف المألوف والمعروف لدى قراءة أي كلام أو كتاب آخر . واقرأ – على سبيل المثال – قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ٨ – ٩] . وانظر كيف تضع في خيالك إنساناً يلتف حول عنقه غل عريض ، مرتفع إلى ذقنه ، جعل رأسه صاعداً إلى الأعلى لا يتحرك ، فتلك هي الصورة الساخرة للتكبر . ثم انظر حاله وهو في مكان مغلق ، وقد غشى الظلام على بصره ، فهو لا يملك حراكاً نحو أي اتجاه ، وتلك هي صورة من لم ينفع معه هدي ، وظل في ضلاله .

رابعاً – جلال الربوبية وكبرياء الألوهية في آياته

من أجلى مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم ما يوجد في كثير من آياته من جلال الربوبية وكبرياء الألوهية ، بقطع النظر عن المعنى الذي يؤديه اللفظ . وهذا مما لا يقوى على اختلاقه أي إنسان ، في أي صنف من أصناف المعاني والكلام .

وبيان ذلك : أن الكلام مرآة لطبيعة المتكلم ، تتجلى فيما يكتب أو يقول ، وتزداد وضوحاً كلما تنوعت أبحاثه ومواضيعه . وإذا كان في مقدور الإنسان أن يظهر بصورة طبيعية أخرى ، فإن ذلك لا يمكن أن يصل إلى حد التناقض ، بحيث ينطبع بخصائص البشرية تارة ، وبخصائص الألوهية أخرى . وإذا كان هذا غير ممكن ، فلا يمكن لإنسان ما أن يصوغ كلاماً ينشر من حوله عظمة الربوبية وكبرياء الألوهية في صياغة لا تكلف فيها ولا تمثيل ، كما هو ظاهر في كلام الله عزَّ وجلَّ .

واقرأ – على سبيل المثال – قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ

(١) مقمحون : رافعو رؤوسهم ، يقال: أقمح الغل الأسير إذا ترك رأسه مرفوعاً .